بين التاريخ والادب

حين يتصدى باحث لدراسة عصر من عصور التاريخ، يرجع إلى تلاوة ما كتبه المؤرخون القدامى عن حياة ذيّاك العصر من جميع نواحيه الوطنية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية وطبيعة الشعب وسيَر الحكام واهواءِ القادة ومذاهبهم السياسية وكثيراً ما يصطدم باقوال المؤرخين المتباينة، ولا سيما حين يعرض لدراسة سيرة شخصية فذة تكون قد اضطلعت بدورها الخطير في حياة الامة التي تسلّم مقدرات مصيرها.

وهنا، يستخدم المؤرخ علمه وذكاءه للوصول إلى الحقيقة المجردة التي تظل مغمورة باثواب مبرقشة لا يستطيع، مهما حاول الاستقصاء، النفاذ إلى كنهها!.

وما من باحث تصدى لكتابة التاريخ، إلا واصطدم بهذه الآراء المتباينة فبحث ونقّب، وكتب وعلق، وقد يكون تفلسف، ولما يزل، من غير ان يبلغ الحقيقة.

ومن يدري، فقد ينتهي به الامر إلى الشك في قيمة ما كتبه هو بالذات!.

هذا إذا كان مؤرخاً نزيهاً لم يندفع وراء هواه وهواجسه الوجدانية وحتى الايمانية، أو وراء نزعة من نزعاته السياسية.

وللكتاب والفلاسفة واصحاب المناهج، مباحث طريفة عن قيمة ما يكتبه المؤرخون، مما يدونونه كوقائع ثابتة.

قمت شخصياً بابحاث وافرة من غير ان اتناول إلا في ما ندر الجوانب التاريخية فيها، وآثرت بالاحرى الكتابات الانشائية ليقيني ان الجديد في الابداع الكتابي يتعلق كثيراً بالمبنى، هذا الكساء، الذي تتوشح بها المعاني والوقائع وما اليها. ففضل الكاتب اليوم خصوصاً يتأتى غالباً لا من المعنى والواقع، لانهما غالباً معادتان ومتوافرة في ما توفره التقنيات وبطون الكتب القديمة وما اقل الذين يجودون منهما بجديد ما، ما اقل ما يبتكرون أو يصدقون. وان كان من جديد فيعود إلى المبنى، هذا العرض الذي لا بد منه لبروز الجوهر واستيلاده هكذا من اذهان المتعلم بالذات تبعاً للطريقة السقراطية القديمة. المعنى، غالباً، مشاع، والمبنى ملك خاص ويسهل على صاحبه الدفاع عنه إذا قضت الحاجة. وغبن وشطط، التنكر لطاقة المبنى الجمالية، التي ترفع من قيمة المعنى بعد ان تكون اخرجته من دنيا العدم او المجهول. وزبد القول ان قيمة الكاتب، بمعناه وباسلوبه، قبل ان يكون بمعناه وبالحدث الذي يبتغون التسابق والتهافت عليه.

ان ادب الخالد جبران، بروعته وبلاغته والتزام صاحبه الشخصي فيه، لهو اكثر انعكاساً لواقعه واشد تأثيراً، ولو بعد حين، من افضل كتب التاريخ، واكثرها موضوعية.

د. جهاد نعمان